مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٣٩) أكتوبر ٢٠١٥م ص ص: ٩ - ٢٩
جامعة سوهاج
كلية الآداب

فضاءات السيرة الذاتية في ذكريات طفل وديع

د. سمية بنت رومي بن عبد العزيز الرومي (*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام النبي الكريم وعلى آله وصحابته الغر الميامين .

أما بعد:

فقد شهدت فنون السرد في العصر الحديث تنوعا وتطورا عظيما ؛ فقد تطورت القصة والرواية والسيرة الذاتية وتفرعت منها أجناس كثيرة ، وعلى سبيل المثال تفرع من السيرة الذاتية فنون سردية تداخلت معها في بعض السمات مثل الرواية والمذكرات واليوميات وأدب الوقائع.

اهتم منظرو الأدب والدارسون في اطروحاتهم النقدية بتقعيد وتقنين هذه الأنواع للتمييز بينها وبين فن السيرة الذاتية ، ومع أن الآراء حاولت الفصل بين هذه الأجناس إلا أنها لم تكن فاصلة في التفريق بينها، ومن أشهر الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب (الميثاق السير الذاتي) للكاتب الفرنسي فيليب لوجون، وقد ترجم بعض فصوله (عمر حلي) في كتاب تحت عنوان(السيرة الذاتية – الميثاق). وبيّن القوانين النظرية التي وضعها (فيليب لوجون) ، والتي لم تنجح في التمييز بين السيرة الذاتية وغيرها من الأجناس، وبعده صدر كتاب السيرة الذاتية لمؤلفه (جورج ماي) الذي خالف فيليب لوجون في وضع قوانين تحدد السيرة الذاتية(١).

لقد كانت هذه المحاولات النقدية التنظيرية ردة فعلٍ متساوقة مع الواقع الإبداعي الأدبي في أوروبا الذي كان يشهد نشر كثير من السير الذاتية واليوميات والمذكرات وغيرها من سرديات تتناول السيرة الذاتية.

وفي المقابل نرى أن السيرة الذاتية في العالم العربي ظهرت بعد الرواية ، وإن كان لها جذور تاريخية، نذكر منها ما كتبه ابن بطوطة في رحلته الشهيرة، وكذا ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا) وأسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار)، وغيرهم ممن كتب سيرته ، وكان اهتمامهم منصبا على تلمس ما ينقل الخبرة والمعلومة للمتلقي لتثقيفه وتعليمه. أما في العصر الحديث فقد شهدت السيرة الذاتية تحولا جوهريا بعد اتصال الأدب العربي بالغرب ، فظهرت السيرة الذاتية وتداخلت معها الفنون السردية الأخرى كما أسلفنا.

إن كاتب السيرة يمتح سيرته من ذاته التي عاشت الحدث لذا تغلب عليها الذاتية والبعد عن الموضوعية، وهذا ما دفع بعض الكتاب إلى تناول سيرهم بأسلوب روائي، ومن هؤلاء طه حسين في كتابه (الأيام) الذي كتبه بأسلوب روائي أودع فيه سيرته الذاتية، حيث كان من أوائل من كتب السيرة الذاتية بالأسلوب الروائي فسار على منواله كثير من الكتاب في العالم العربي .

كتب عبدالعزيز الربيع سيرته الذاتية في (ذكريات طفل وديع)، وفي هذه الدراسة سوف أتناول هذه الذكريات بالدراسة ، وقد جعلت عنوان هذه الدراسة (فضاءات السيرة الذاتية في ذكريات طفل وديع) ،

(*) أستاذ مشارك في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن – الرياض – المملكة العربية السعودية .

(١) - انظر الباردي، محمد ، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م ، ص ١٠

وسوف أحاول الإلمام بمحاورها الفنية ،ومنهج الربيع في ذكرياته. وسوف أتناول المقومات القصصية في ذكريات طفل وديع، والوصف في الذكريات، وكذلك البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في الذكريات، والاقتباس النصي، كما أني سوف أقف على أسس السيرة الذاتية التي تتميز بها هذه الذكريات.

الدراسات السابقة:

اطلعت على الدراسات التي اهتمت بأدباء المدينة المنورة ولم أجد من الباحثين من خصص دراسة مستقلة تخص هذه الذكريات لاتخاذها وثيقة تعرف بتاريخ المدينة الثقافي والاجتماعي والاقتصادي من خلالها، وما وصلت إليه يدي من مقالات لا يعدو أن يكون تعريفا بصاحب الذكريات، أو تلخيصا لموضوعها ومن هذه الدراسات:

١-ما ورد في معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين ١٩-٢٠ وهو تعريف يسير بسيرة الأديب الربيع وذكر عناوين نتاجه الأدبي دون تفصيل.

٢-ما ورد من مقالات في بعض الصحف التي كانت أشبه بنقل الأخبار أو ما ينشر في الشبكة العنكبوتية وجميعها لا يرقى ليكون دراسات أدبية.

وبما أني لم أجد بحثا أو دراسة تخص موضوع الذكريات، فهذا شجعني للاجتهاد في بحث هذا الموضوع وإلقاء الضوء عليه.

وفي هذه المقاربة سوف أحاول الإجابة عن السؤالين التاليين:

- هل عكست ذكريات الأديب عبدالعزيز الربيع النواحي المختلفة لمجتمع المدينة؟
- وماهي الأبعاد الفنية لكتابة السيرة الذاتية التي جسدتها الذكريات؟

وللإجابة عن هذين السؤالين إجابة دقيقة سوف أبحر في فضاءات هذه الذكريات وأقف وقفات متأنية أمامها لمقاربتها، والدخول إلى زمنها الماضي، وأطوف في فضاءاتها الفنية لمقاربتها مقاربة فنية تستخلص سماتها الفنية.

صعوبات الدراسة:

وكما هو المعتاد في طرق أي موضوع جديد فإن الصعوبة تمثلت بقلة المراجع التي تتناول الموضوع.

منهج الدراسة:

وبما أني سأتناول الجوانب الفنية في كتابة السيرة الذاتية فإني سوف أعتمد المنهج الفني[1] إلى جانب المنهج الوصفي التحليلي في مقاربتي النقدية لهذه الذكريات، وذلك لإلقاء الضوء على المضمون لأهميته في الإجابة على التساؤل الأول من تساؤلات الدراسة.

خطة البحث:

وللإلمام بأطراف هذ الذكريات رأيت أن تكون خطة البحث كما يلي:

المقدمة.

الهدف من مقاربة الذكريات.

تمهيد.

محاور المقاربة الفنية.

١) عتبة المؤلف.

---

[1] المنهج الفني: هو أن نواجه الأثر الأدبي بالقواعد الفنية المباشرة، وننظر في قيمه الشعورية، وقيمه التعبيرية، ومدى ما تنطبق على الأصول الفنية لهذا الفن من الأدب، ونحاول تلخيص خصائص الأديب الفنية من خلال أعماله . انظر قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط٦ ، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٠هـ، ص١١٧

٢) عتبة العنوان.
٣) عتبة الإهداء.
٤) منهج الربيع في مذكراته.
٥) المقومات القصصية في ذكريات طفل وديع.
٦) الوصف في الذكريات.
٧) البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في الذكريات.
٨) الاقتباس النصي.
٩) أسس السيرة الذاتية.
أ. الصدق والصراحة.
ب. الصراع.
ج. النمو والتطور.
وأخيرا ذيلت الدراسة بخاتمة حملت النتائج والتوصيات.
هذا والله أسأل أن يبارك هذا العمل وأن يرزقنا الإخلاص وألا يحرمنا من خدمة لغة القرآن الكريم.

الهدف من مقاربة الذكريات:

قبل الوقوف على ذكريات الربيع أود التأكيد النظري على قيمة الأدب والفن الرفيع في حياتنا التي أرهقتها الماديات، فناءت النفوس بحمل لا تطيقه، وأثقلت بقيود بيدها الإفلات منها ومع ذلك فإنها لا تفعل.

إن الحقيقة عند المسلم لها ثلاثة مظاهر: (الحق والخير والجمال)، فكل ما لدينا من حراك ثقافي وفكري يجب أن (يقود إلى الحق، وكل ما نقوم به من أعمال سلوكية يجب أن يكون هدفها وغايتها الخير، كما أن كل ما يوجه أبصارنا وإحساسنا وعواطفنا يجب أن يتوجه إلى الجمال)[١].

يذكر الكاتب فاروق باسلامة في صحيفة الرياض مثنيا على أدب الربيع ونتاجه الهادف قائلا: إن عبدالعزيز الربيع يعد (عضواً في المدرسة الأدبية للنقد المعاصر التي تتخذ من الناموس الأدبي للأمة منطلقاً لها، ومن الفكرة الدينية مساهمة منها في نشر الثقافة أينما كانت، وفي أهدافها وأساليبها كيف جرت بحيث ترمي إلى إفادة المجتمعات التي تتكون من أفراد الناس والبشرية لخدمتهم عن طريق هذه الأطروحات الثقافية والدراسات الأدبية والأفكار الدينية للعمل من أجل معرفة التراث والتاريخ والثقافة)[٢].

لذا فإن الأخذ بيد المتلقي إلى فضاءات الحق والخير والجمال عبر الإبحار في عالم الفن والأدب الرفيع هي مهمة ربانها الناقد والأديب؛ اللذان أخذا على عاتقهما أداء رسالة: تفعيل الكلمة الطيبة في دنيا الناس، ولعلني وكاتب (ذكريات طفل وديع) ممن يؤدي هذه الرسالة.

تمهيد:

تعريف السيرة: يعرف فيليب لوجون السيرة الذاتية بأنها: عبارة (عن محكي استرجاعي نثري يحكيه شخص واقعي عن وجوده الخاص عندما يركز على حياته الفردية وخصوصا على تاريخ شخصيته)[٣].

وكاتب السيرة الذاتية يتحدث عن نفسه لذا يصيبه الحرج (فالحديث عن النفس ثقيل إلا إذا التمس صاحبه غرضا تعليميا أو قصدا إلى منفعة، وهو بين أمرين: فإما أن يكون صريحا فيهتك سترا أمر الله به أن يسدل، وأما أن يتكلم فلا يذكر إلا ما يزكيه والله سبحانه وتعالى يقول: (ولا تزكوا أنفسكم)، غير أن له

---

[١] نجيب الكيلاني ، الإسلامية والمذاهب الأدبية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ص ٤٧- ٤٨
[٢] الخميس ٧ صفر ١٤٣٤ هـ - ٢٠ ديسمبر ٢٠١٢م - العدد ١٦٢٥٠ فاروق صالح باسلامة
[٣] فيليب لوجون (السيرة الذاتية) ترجمة عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص ٢٢، نقلا عن جميل حمداوي فن السيرة الذاتية ، التنوخي للنشر ، ط١ ٢٠١٠، ص ٥

مندوحة عن ذلك فهو ولا شك سالك سبيلا وسطا يفضي إلى الصواب، وغالبا ما تكون السيرة الإسلامية هادفة، تبتعد عن مواطن الحرج وتتجاوز إلى ما هو أنفع وأفيد) [١] .

١) عتبة المؤلف:

ولد عبدالعزيز الربيع في أواخر الخمسينيات عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م بالمدينة المنورة وبها تلقي تعليمه، حيث حفظ القرآن الكريم، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها، والثانوي بمكة المكرمة، والجامعي بالقاهرة في كلية دار العلوم، وحصل على ليسانس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، ثم التحق بالدراسات العليا بكلية التربية. وبعد ذلك عاد إلى المدينة المنورة .

عمل مدرسا ثم مفتشا ثم مديرا للتعليم بمنطقة المدينة المنورة ، كرم من جامعة الملك عبدالعزيز باعتباره احد الرواد من الأدباء السعوديين، وقد تولى رئاسة النادي الأدبي في المدينة المنورة وأصدر عديدا من الكتب التربوية والمدرسية، وقد سجل في المشهد الثقافي السعودي نشاطا تنوع بين المحاضرات في الهيئات الثقافية والعلمية، ومشاركات متعددة في الإذاعة والتلفزيون.

والرائد الربيع واسع الاطلاع كثير القراءة باحث ومنقب، غزير الفهم والكتابة، لذلك فإنه قد يحيط علماً بالشيء دون سواه ممن احترفوا الكتابة الصحفية دون مزيد من متابعة ما يصدر من الأعمال الأدبية والفكرية وإنما يطرحون ما يكتبونه من أجل النشر ليس إلا.

أما عبدالعزيز الربيع الأديب الناقد فإنه يختلف عن هؤلاء لأنه يشكل مدرسة أدبية ونقدية سعودية انطلاقاً من ذاته وفكره وموهبته ومعرفته وفهمه العبقري الشاسع.

كان الربيع دائم الصمت ، دخل في كثير من المعارك مع الأدباء فكان قوي الحجة ، واضح البيان ، معجب ببلاغة القرآن والسنة، خلف تراثا أدبيا وتربويا طبع منه:

١- ذكريات طفل وديع.
٢- كتاب رعاية الشباب في الإسلام.
٣- دراسة في ديوان (قدر ورجل) للشاعر الكبير محمد حسن فقي.
٤- دراسة في ديوان همسات قلب لفضيلة الشيخ محمد المجذوب.
٥- بناء الفرد في وجهة التربية الإسلامية.
٦- التربية عند العرب قبل الإسلام.
٧- دراسة في شعر أمجد الطرابلسي.
٨- شوقيات وشوكيات.
٩- مع الجن والملائكة والشياطين.
١٠- صور وملامح.
١١- أبو لهب شخصية قلقة في المجتمع القرشي.
١٢- كتب ومؤلفون.
١٣- المدينة المنورة – دراسة وصفية تاريخية.
١٤- موسوعة المدينة المختصرة.
١٥- مناوشات ومناقشات.
١٦- ديوان شعر يضم العديد من القصائد.

[١] في الأدب الإسلامي ، قضاياه وفنونه، محمد صالح الشنطي ، دار الأندلس ، حائل ، ط ٢ ، ص ١٤١٨هـ ص ٤٥٩

كان الربيع يشكل رمزاً نقدياً، وسمة فكرية وصفة أدبية فيما كتب خاصة وأنه يكتب في الصحافة بأسلوب الأديب وينشر في المجلات بطرح المثقف، ويبث في وسائل الإعلام عامة بفكر الكاتب الذي يبحث عن الجديد دوماً في سبيل الطرح المعنوي للمتلقي والموضوع الهادف للقارئ.

شارك في تأسيس أسرة الوادي المبارك التي استمرت قرابة ربع قرن في المدينة المنورة ، وهي أسرة أدبية تهتم بالأدب والتراث ، وكان يستضيفها في بيته أسبوعيا في كثير من اجتماعاتها ولقاءاتها.

خلف مكتبة ضخمة ضمت شتى الفنون يربو عدد الكتب التي فيها على خمسة عشر الف كتاب .

كانت حياته مليئة بالنشاط النقدي والثقافي حتى وافاه الأجل في صفر من عام ١٤٠٢ه – ١٩٨١م.[١]

٢)عتبة العنوان:

العنوان هو المفتاح الذهبي الذي يجعلك تلج وتدخل وتتعرف على المحتوى له، وعنوان سيرة عبدالعزيز الربيع (ذكريات طفل وديع) جاء مكونا من جملة كاملة مكونة من مبتدأ محذوف تقديره هذه، وذكريات خبر مضاف وطفل مضاف إليه، وهذه الإضافة في البناء تبين التلازم الدلالي بين هذا الطفل والذكريات، ويأتي الوصف (وديع) مبرزا أهم سمة لهذا الطفل؛ إنها (الوداعة)، ومع جمال وصف الوداعة التي تلحق هذا الطفل، فإن ثمة محاولة من الكاتب للانقطاع عن هذه الصفة، فعدم نسبة طفل وديع لـــ (الأنا) وللذات يحمل دلالة الهروب ومحاولة التخلص من هذا الوصف من خلال اسم الإشارة المضمر (هذه) ذكريات، أو ضمير المخاطب هو، إنها محاولة عدم التواصل تفاجئ القارئ من العنوان، وتزداد وضوحا في الإهداء، وفي تعليق الذات على المواقف السردية المختلفة التي تتلبس بصفة الوداعة في الذكريات.

لقد جاءت (ذكريات) بصيغة الجمع، وقد جاوز المحتوى الخمسين موقفا، وهي ذكريات محصورة بمرحلة الطفولة، وكل موقف يكاد ينتهي بتوقيع (طفل وديع)، وهذا الطفل هو راوية الحدث وشاهده والشخصية المحورية في أغلب المواقف، وصفة الوداعة البارزة في بعض المواقف صفة كان صاحبها يمقتها، ولا يريدها، ويظل في صراع معها، فالمتن القصصي معبر عن هذا العنوان، ويحمل العنوان إيحاء وهو أن المؤلف لديه قبول واغتباط بصفة (الوداعة) لكن التعليق الذي يتبع الموقف يضاد هذا المعنى، فيظهر السخط والآثار النفسية السلبية التي أفرزتها هذه الوداعة، والمكون الشخوصي في العنوان (طفل) يزيده الوصف (وديع)قبولا عند غيره من أساتذة وطلاب ومعارف، لكن هذا الوصف تأباه الذات في طفولتها، ويظل الرفض مصاحبا لها حتى لحظة كتابة هذه الذكريات.

٣) عتبة الإهداء:

يكشف الإهداء الذي استهل الربيع به ذكرياته سخطه وعدم قبوله لصفة(وديع)، لذا يجعل الإهداء موجها إلى ابنه وفلذة كبده، وقد كتب عنوان الإهداء بهذه الطريقة (إهداء....إليه إلى... الابن الوديع)وقد دلنا على صاحب الضمير في (إليه) بالاسم (الابن الوديع)، إذن من البداية يخبرنا أن صفة الوداعة قد ورثها ابنه، لذا فإن صاحب الذكريات الوالد (الطفل الوديع) تجمعه مع ابنه الصفة ذاتها (وديع)، فلا غرابة أن يحرص على رصد ذكرياته الطفولية لينقلها لشبيهه، فالهدف إذن هو نقل التجربة وإفادة الابن من هذه التجربة الحياتية التي عاشها الأب، وتفعيلها في حياة الابن، وفي الإهداء يوجه المؤلف حديثه لابنه قائلا: (أيها الابن العزيز أنت أحق الناس بإهداء هذا الكتاب إليك، لأنك تعيش حياة شبيهة بحياة ذلك الطفل الوديع

---

[١] انظر البلهيشي، محمد صالح، لمحات عن حياة الربيع ، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي ، ط١، ١٤٠٢ص١٥٧-١٥٩، وانظر الخميس ٧ صفر ١٤٣٤ هـ - ٢٠ ديسمبر ٢٠١٢م - العدد ١٦٢٥٠ فاروق صالح باسلامة.

صاحب الذكريات الأمر الذي يزعجني ويستثير الألم في نفسي، فأنا ما كرهت شيئا في حياتي كرهي للوداعة في ذلك الطفل، ويبدو – مع الأسف الشديد – ان عدوى الوداعة وهي مرض وبيل قد انتقلت إليك من أبيك ومن جدك متحدية كل الجهود التي بذلها أبوك من أجل الحيلولة دون وصولها إليك).[١]

ويبين له في هذا الإهداء ما خلفته له الوداعة من مرارات وآلام نفسية وجسمية؛ لذا يحذره بعدم الثقة في كلمات من يمتدحون الوداعة ويغتبطون بها، ويختم الإهداء بقوله: (ونصيحتي لك كذلك أن تبذل كل ما تستطيع لتتخلص من الوداعة فهي آفة أعيذك بالله منها وفرص النجاح أمامك أكبر، ولعلك تنجح فيما أخفق فيه أبوك بفضل عزيمتك وثقافتك ورضا أمك ودعوات أبيك) [٢].

إن ابنه أعز الناس لديه لذا يهدي خلاصة تجربته في الحياة إليه، ويبين في العنوان ما يجمع هذه التجارب (ذكريات طفل وديع)، والعنوان يحمل صفة قبول الوصف (وديع) فلا يوجد ما يحذر من الوداعة فيه، ولكن الإهداء يفصل في التحذير ويكرر النصيحة فيه، ولعل ذلك تحفيزا نفسيا لابنه لكي ينظر بعين النقد الساخط لتلك الوداعة التي ابتلي بها والده من أجل أن يحذرها ويربي نفسه على توقيها حتى لا تنتقل آثارها السلبية في حياة ابنه، فيظل حذرا يقظا مربيا لنفسه ومعالجا لها من الوداعة.

لقد جاء الإهداء مليئا بالصدق والمحبة والخوف على هذا الابن من صفة الوداعة، ومنبها للمتلقي للآلام التي عانى منها صاحب الذكريات ليشاركه ألمه وتجاربه التي مرّ بها، وكثير من كتاب السير يرمون من كتابة سيرهم إلى تخفيف آلامهم ببثها وإشراك الآخرين معهم.

٤) منهج الربيع في ذكرياته:

جاءت ذكريات الربيع بقالب سردي تفسيري تحليلي، حيث تتبع ذكرياته واهتم برسم البيئة الزمانية والمكانية، واعتنى عناية شديدة برسم الشخصيات التي ظهرت في ذكرياته، فأبرز تكوينها النفسي والاجتماعي والاقتصادي، وقد تعمد رسم البيئة الزمانية والمكانية بدقة للمقارنة بين الماضي والحاضر، والقارئ لا يخفى عليه احتفاء الربيع بالماضي والمجتمع التقليدي الذي اختفى من لوحة الحاضر، ولم يختف من وجدان الربيع بل يظهر حنينه لذلك الماضي وشغفه به.

لقد اعتمد الربيع في سيرته التوثيق الدقيق، فهو البطل في كل موقف يورده لذا كان يعتمد على ضمير المتكلم مستحضرا التجارب التي مرّ بها؛ فهو يسترجع طفولته مقارنا نفسه مع غيره في بعض المواقف التي تبرز فيها صفة الوداعة، ومرد هذه المقارنة إبراز سخطه وعدم رضاه عن ذاته، لذا هيمن الفعل الماضي على الكاتب في استرجاعه للذكريات، لكنه لا يريد من هذا طيه وإخفائه، بل يريد مواجهته والحيلولة دون بقائه في ولده وعقبه، إن الماضي (الزمن المفقود) لاتزال آثاره في حياة الكاتب جسديا ونفسيا لذا يلح الكاتب على مواجهته ومقاومته، وألم الكاتب يبدو لنا من رؤية داخلية ذاتية تطغى على أغلب المواقف السردية التي حكاها في ذكرياته، ولعل كتابته لهذه الذكريات خففت شيئا من هذا الألم، ذلك أن (الغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي تخفيف العبء عن الكاتب، بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي متنفس طلق للفنان)[٣].

بدأ الربيع ذكرياته بقصة هذه الذكريات، وبين أصولها التي ترجع إلى نصيحة أستاذه الذي نصحه بعيد تخرجه وقبل عودته من البعثة أن يكتب مذكرات له، وقد أظهر ندمه على عدم تنفيذها، واستجاب لطلب صحيفة البلاد بتسجيل ذكريات أيام التلمذة، كان الربيع متوقعا أن يكتبها في مقال أو مقالين كما فعل غيره

---

[١] مذكرات طفل وديع : ١٣

[٢] السابق : ١٤

[٣] إحسان عباس ، فن السيرة ، ط٢ ، بدون تاريخ ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ١٠٧

من الأدباء، ولكن بعد شروعه بالكتابة انثالت عليه ذكريات كثيرة كانت راكدة في ذهنه، وقد اهتم بإخراجها لإدراكه قيمة ربط الأجيال بتاريخ أممهم للوقوف على الإيجابيات وتنميتها أو إعادتها، وذكر السلبيات لتلافيها، ولتسليط النظر على حجم التطور الذي حققته الأمة.

وبعد هذين الموضوعين شرع في كتابة ذكرياته التي بدأها بموضوع (بين البيت...والحرم...والمدرسة)، وقد ربط المتلقي بالبيئة المكانية التي تتسور هذه الذكريات، ونجح في إشراك المتلقي بهذه البيئة التي تهفو لها الذات المتلقية، كان الحرم النبوي أبرز معالم المدينة المنورة، بل هو المحور الذي تدور عليه الحياة، (وقد كان للحرم أقوى الانطباعات في نفسه: فإليه مغداه ومراحه، وفيه متنفسه ومسرته، وعنده يلتقي بإخوانه للقراءة والمناقشة، وبأساتذته للدراسة والبحث، وبنفسه للصلاة والراحة، وبالمصلين للتقوى والإنابة)[1]، ويكمل ذكريات الحرم الذي كان يقضي به جل وقته، فهو يذهب إليه ثلاث مرات يوميا مع والده لصلاة الفجر، ومع المدرسة لصلاة الظهر، وقبيل المغرب حتى يغلق بعد صلاة العشاء، والتحديد الزمني يبين المساحة الزمنية الشاسعة التي تقاسمها الحرم من هذه الذكريات.

تناول بعد ذلك المدرسة والبيت، واقتصر حديثه عن البيت المرتبط بالمكان وحدوده، وليس بالأسرة، وقد تحدث عن البيت الذي طالما حن إليه، ويذكر كيف قاده هذا الحنين إلى زيارته في احدى المرات وبعد أن وصل إلى مداخله التي تغيرت كرّ راجعا وهو يردد قصيدة(العودة) لإبراهيم ناجي، ويقول معلقا على زيارته: (لم أشعر بقيمة المال كما شعرت بها وأنا في طريقي إلى هذا البيت وفي طريقي للعودة منه أو من أوائل مداخله فلو كنت أملك قدرا كافيا من المال لاشتريت هذا البيت: بيت الصبا والذكريات..)[2].

اتسم سرد الربيع بالتدفق، ودقة الوصف، فهو يذكر المدرسة والكتاب أو المُكتب بضم الميم والفروق بينهما، ويذكر بعض الشخصيات البارزة من المعلمين الذين كانت لهم جهود في خدمة الكتاتيب، ومن هؤلاء أحد المشايخ الذي كان على جانب كبير من العلم، وكان مشرفا على مكتبة ضخمة تضم كنوزا من الثقافة الإسلامية، ويذكر عن هذا الشيخ موقفا يظهر سرعة بديهته قائلا: (ومما سمعته عن أستاذنا الشيخ أو شيخنا الأستاذ أنه ذهب مرة إلى مدير شركة السيارات التي كانت موجودة يومئذ ليراجعه في شأن من شئون السفر ويبدو أن خلافاً نشب بينهما فأراد مدير الشركة أن يسخر من أستاذنا وأن يهون من شأنه فقال له: (روح أنت لا تفهم في هذه الأمور أنت شيخ كتّاب معلم بزورة). وظن أنه قد حطّم كرامة أستاذنا، وألقمه حجرا لا يقوى بعده على الكلام ولكن أستاذنا كما قلت كان قوي الشخصية سريع الخاطر ـــ فبادر بدون أي تروٍ أو انتظار ورد قائلاً: (نعم صدقت أنا شيخ كتاب أعلم الناس القرآن والعلم أما أنت فشيخ عربجية) وكان جواباً قاسياً مفحماً لم يتوقعه مدير الشركة فسكت ولم يحر جواباً وواحدة بواحدة والبادئ أظلم)[3].

ويذكر أثر أبي موسى الشيخ محمد الحافظ عليه، وما كان من جهوده المثمرة التي قدمها له من تدريس وشرح وتعليم، لقد فتح مكتبته للصبي صبيحة يوم الجمعة من كل أسبوع حيث يقضي عدة ساعات يقرأ فيها الدواوين الشعرية التي يقرأها على الشيخ ويحفظها، وقد حفظ كثيرا منها خلال ثلاث سنوات، ويختم حديثه عن أستاذه بقوله: (إنه الرجل الذي يتنافس في الفخر به العلم والثقافة والقضاء هو أستاذنا وصاحب الأيادي علينا العالم الأديب الشاعر الراوية المؤرخ المعلم القاضي أبو موسى الشيخ محمد حافظ حفظه الله ووصل في حياته النافعة)[4].

---

[1] مذكرات طفل وديع : ٣٠
[2] السابق : ٣٣
[3] السابق : ٣٨
[4] السابق : ٤٣

ويتابع سرد ذكرياته في التعليم ويظهر في سرده إعجابه بالمعلمين الذين كان الصبر والإخلاص حلية بل طبيعة تلازمهم، وبذكر مواقف الطلاب التي تظهر طيش الشباب، وتبين صبر المعلمين على الطلاب من أجل إيصال رسالتهم التعليمية، ويذكر بواب المدرسة (العم موسى) فراش المدرسة، وجده ونشاطه وحيوتيه، يقول مثنيا عليه (كان العم موسى هو محور المدرسة في هذه المجالات، وكان كالنحلة لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار، .....ويستمر في الثناء عليه ثم يختم بقوله: وليت أبناء المدرسة يتداعون إلى إقامة حفل تكريم لهذا الرجل العظيم والجندي المجهول (العم موسى)[١].

ويواصل الربيع سرد ذكرياته وتزداد المواقف العجيبة التي تستحق التسجيل في ثنايا هذه المذكرات من ذلك موضوع (أول حادثة سيارة في المدينة تقع في حارتنا) فيذكر هذا الحادث الذي يسبب موت أحد المارة، ومن الموضوعات المثيرة (مارد في السحيمي)، و(علاج الطحال بملعقة من خشب)، و(ظلم كاد يعصف بحياتي) وغيرها من موضوعات تثير خيال القارئ وتعكس صورة المدينة المنورة، وحال التعليم آنذاك من شاهد عيان هو عبدالعزيز الربيع.

٥) المقومات القصصية في ذكريات طفل وديع:

تتمحور أحداث الذكريات حول شخصية واحدة في الذكريات هي شخصية الكاتب، وكذلك عنصر المكان على اختلافه، وعنصر الزمان، وعنصر الشخصيات على اختلافهم بعداً وقرباً من الكاتب.

والشخصية الرئيسة في الذكريات شخصية نامية متحركة متفاعلة مع الأحداث، وهي تتغير حسب تغير الحدث السردي، لقد استطاع الكاتب نقل الأحداث التي تلبست بها شخصيته بمصداقية تجمع بين التشويق والترتيب الزمني للحدث، ولم يلجأ إلى الحوار بسبب القالب المباشر الذي اختاره لسرده، ومع ما ظهر من امتعاض من الكاتب تجاه صفة الوداعة والتي فهمنا منه أنها مظهر من مظاهر الضعف، إلا أننا أكبرنا هذه الصفة من خلال المواقف التي يتضح منها قوة الكاتب في كبح جماح غضبه، وتفكيره البعيد برضا والديه، ومراعاة شعورهما، وقد كانت الشخصيات الإيجابية التي تحدث عنها ووصف أفعالها وإعجابه بها تعكس صورته المثالية، وكذلك وصفه للشخصيات السلبية والمعلولة وعدم قبوله لها تعكس الصورة ذاتها، صورة الشخصية التي تميل إلى المثالية والكمال، والشخصيات في المواقف التي برزت مع الكاتب كانت شخصيات أساسية لا تؤدي دورا هامشيا تكميليا بل هي في الغالب الشخصية الرئيسة في السياق الروائي الذي شاركت فيه، وقد كان الكاتب يعمد إلى التذكر والاسترجاع للشخصيات وللفضاء المكاني الذي سيطر على المذكرات من بدايتها إلى أن وضع الكاتب قلمه بعد وضعه نقطة الختام، ويأتي وصفه للمنزل وللسفر ولوسائل النقل كاشفا لذلك الفضاء مستوحيا لمظاهر الجمال فيه، ذلك الجمال الذي كان يستمده من الاستقرار الروحي الذي كان يعيشه الكاتب، ويظهر وصفه التوافق النفسي بينه وبين ذلك الفضاء؛ لذا فإننا لا نجد صراعا بين الذات والفضاء المكاني إلا فيما ندر، من ذلك ما رواه تحت عنوان (مارد في السحيمي).

يظهر في هذه السيرة المنظور السردي منطلقا بضمير المتكلم، وهذا عائد إلى الأسلوب المباشر الذي اختاره الربيع لسرد ذكرياته، فهو يعبر عن رؤية داخلية، وأحيانا يلجأ إلى الرؤية الخارجية التي تعتمد صيغة الغائب وهذا غالبا عند سرده للمواقف التي يحاول عدم الانتماء إليها، وهذا يبرز في العنوان (ذكريات طفل وديع)، فقد جعل العنوان بضمير الغائب لأنه كما بينا كان كارها لصفة الوداعة التي سببت له كثيرا من المتاعب النفسية والجسمية، وأحيانا يلجأ إلى الرؤية الخارجية، فيعتمد الضمير الغائب عندما يكون الموقف الذي يرويه يظهر فيه مدحا له واحتفاء بشخصه، وهذا راجع لصفة التواضع التي كانت سمة بارزة من

[١] السابق: ٧٦

سماته – رحمه الله– من ذلك قوله: (الصف الرابع الابتدائي هو أول صفوف المرحلة الابتدائية بعد المرحلة التحضيرية وهي (مرحلة تحفيظ القرآن) وخلال عامنا الدراسي بهذا الصف زار مدرستنا السيد شكري القوتلي أحد كبار الشخصيات السورية وكان يومها – فيما أذكر وزيراً للمالية في بلاده– وكان له سمعته الكبيرة في خدمة قضايا العرب وبعد أن تفقد صفنا أستأذنه أحد أساتذتي في أن يستمع إلى قصيدة عربية يلقيها أمامه أحد طلاب الصف وكنت أنا الطالب المختار. فألقيت أمامه قصيدة طويلة تزيد عن الستين بيتاً.

وقد اهتز لها الزعيم السوري الكبير ومع أنه أبدى شديد إعجابه بالطالب الصغير الذي يلقي قصيدة في هذه المتانة والقوة بجرأة مدهشة فلا شك في أن إعجابه في القصيدة ومعانيها كان أكبر وقد حركت شجونه وعواطفه. بقي أن أذكر أن القصيدة كانت إحدى محفوظات الطالب الصغير وقد ألقاها معتمداً على ذاكرته. كما أنني أذكر ما كان لهذه الزيارة ولكلمات التشجيع من آثار بعيدة المدى في نفس التلميذ الصغير)[١]؛ ومن الملاحظ انتقال الربيع من ضمير المتكلم أنا إلى ضمير الغائب.

تراوح السرد في ذكريات الربيع بين (السرد الموضوعي) الذي كان يعرض الحوادث ويصف وصفا محايدا يتيح للقارئ الحرية ليحكم ويؤول، وأحيانا كان يلجأ إلى (السرد الذاتي) فكان يعطي تأويلا معينا، من ذلك ما أورده تحت عنوان (كم هم أناس طيبون).

وقد كان يرمي في ذكرياته إلى التبليغ والوصف ونقل الماضي بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، وفي وصفه كان يظهر التقابل والاختلاف بين ماضي المدينة وحاضرها، لذا كان الزمن السردي في ذكرياته ذا إيقاع استرجاعي قائم على الذاكرة، ومحاولة استعادة الذكريات الدفينة، فهو ينطلق من حاضره إلى ماضيه لاستقرائه، ويكاد الحاضر يتلاشى مع أنه يحياه أمام ذلك الماضي الذي سيطر على وجدانه ومخيلته وذاكرته وهو يسترجعه واصفا ومفصلا، وفي ذات الوقت يحاول استشراف المستقبل الذي يحاول إحلال إيجابيات الماضي فيه للنهوض به وإصلاحه، ومن ذلك قوله معلقا على ما كان يجده من ضرب والده وأستاذه من أجل حفظ القرآن (على أنني أحب قبل أن أنتقل من هذه النقطة أن أذكر بكل صدق وإخلاص أنني غير غاضب ولا حاقد على أبي أو أستاذي فأنا واثق ثقة لا يتسرب إليها شك في حبهما لي وحرصهما على مصلحتي وإيمانهما العميق بأهمية حفظ القرآن ونشره بين الناشئين، ولو كان لي أن أختار بين الإعفاء من الضرب وما أخذته منه قدر غير يسير– وحفظ القرآن لاخترت الحفظ ومضاعفة الضرب، أما لماذا؟ فلأن حفظ القرآن فتح أمامي آفاقا عجيبة ما كانت ستفتح لي لولاه [٢].

٦) الوصف في الذكريات:

اعتمد الربيع في الذكريات على الوصف وذلك لتناسبه مع الأسلوب المباشر في سرد سيرته، وقد اضطلع الوصف في تصوير الحدث والمكان والزمان.

لقد تعامل مع البيئة المكانية تعاملا يعكس الارتباط النفسي والثقافي والاجتماعي معها ، والمكان لا ينكر أثره في تكوين الشخصية، والربيع بيئته المكانية تزداد ميزة عن غيرها من البيئات المكانية ، لذا اهتم بوصفها اهتماما كبيرا ، فوصفها بدقة، وذكر معظم أجزائها ومظاهرها، وقد كشف لنا من خلال وصفه نفسيات الشخصيات، ومستواها الثقافي والاجتماعي، وهذا الوصف يسميه بعض الباحثين (الوصف الاستقصائي)[٣].

---

[١] السابق ٨٩

[٢] السابق : ٨٦

[٣] انظر قاسم ، سيزا ، بناء الرواية(دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ١١٩

اهتم عبدالعزيز الربيع بوصف الشخصيات على اختلافها، حيث برزت من خلال وصف الكاتب ولم تفصح عن نفسها بالحوار، واتسم وصفه بالرؤية الذاتية في غالبه، حيث كان يصف المعلمين والأصدقاء ويصف المكان الذي يبرز سمات الشخصية ويضيف لها سمة الواقعية المرتبطة بالبيئة، لذا كان وصفه الخارجي يضيء جوانب الشخصيات داخليا، لقد كان يلتقط ميزات الشخصية الإيجابية والسلبية بدقة ويضعها بين يدي القارئ، ثم تتدخل ذاتيته بحسب صفات هذه الشخصية فيقربها من المتلقي ليقبلها وذلك بتصغير سلبياتها ومساوئها، وهو في أسلوبه لم يكن ظالما ولا متعديا على مثل هؤلاء بل كان لا يجاوز الحقيقة والواقع، وقد حقق هدفا إنسانيا في وقوفه ضد هذه الشخصيات، ومن ذلك ما نقرأه في (كيف كواها تلك الحلوة)، حيث وصف قصة شابة ظلمها زوجها ظلما عظيما أودى بحياتها؛ فقد لجأ إلى الوصف الخارجي، ثم وصف الأحداث والأفعال السردية التي تبرز أخلاقيات هذا الزوج الظالم وطبيعته النفسية المعتلة، وقد كان وصفه للفضاء المكاني والفضاء الزماني مجسدا لمأساة هذه المرأة.

٧) البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في الذكريات:

لقد وظف الربيع الوصف بمهارة فائقة نقلت لنا مجتمع المدينة التعليمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي في فترة حياته، فكان بحق عدسة واقعية نقلت للمتلقي ذلك كله بمصداقية ودقة.

برز مجتمع المدينة المنورة ممثلا وعاكسا صورة بعض المدن، وقد شهد الربيع التغييرات المختلفة التي مرت بها المدينة سواء على المستوى الاقتصادي أو التعليمي والاجتماعي والتاريخي ووصفه يبرز هذه التغييرات والتحولات، بدء بذكره لرحلته إلى مكة من أجل دراسة الثانوية وبعد ذلك الابتعاث إلى مصر، وقد ظهر أثر التعليم الأولي القائم على حفظ القرآن الكريم في شخصية الربيع وأمثاله ممن حملوا لواء نشر الثقافة والمعرفة في البلاد بعد عودتهم، وتعكس المذكرات المستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، واتسم وصفه بالأسى لحالة المثقف السعودي الاقتصادية، فهو يقارن بين حاله وحال التاجر الذي لا يأخذ عمله منه وقتا كبيرا ودخله لا يقارن بدخل المثقف، ومع ذلك فإن وصف الربيع يظهر موضوعيته في ثنائه على الوضع الاقتصادي العام الذي كان يوفر الخدمات الأساسية للمواطن.

٨) الاقتباس النصي:

التناص هو (ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى)[١].

ويعرفه محمد مفتاح بقوله: (هو فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة، وهو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة) ويرى أن المعارضة والمناقصة والسرقة تعد من التناص، وقد استشهد برأي ابن رشيق في السرقة الأدبية وأنها (باب متسع لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه)[٢]. على أن بعض النقاد لا يدخل السرقة والاقتباس والتضمين مع التناص[٣].

ونحن نرى أن كل استفادة في الشكل أو المضمون تدخل في مفهوم التناص وعلى هذا الأساس سيكون بحثنا في التناص الذي يعد ظاهرة فنية ساعدت على تميز أسلوب عبدالعزيز الربيع في ذكرياته.

---

[١] المناصرة ، عز الدين ، علم التناص المقارن ، عمان دار مجدلاوي ، ط١ / ١٤٢٧هـ ، ص١٣٩.

[٢] مفتاح محمد ، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، ط٢ /١٩٨٦م، ص ١٢١-١٢٢.

[٣] بيومي ، مصطفى ، التناص النظرية والممارسة ، مطابع الحميضي ، الرياض ، ط١ / ١٤٣١هـ ، ص١٨٨

لقد أثرت ثقافة الربيع الواسعة في مجال العلوم الدينية والأدب في لغته وفي أسلوبه الفني، وفي هذه الذكريات يتناص الربيع مع عبد الفتاح بو مدين في بعض الظواهر الأسلوبية من ذلك النزوع إلى الاستقصاء والتعليل للألقاب وأسماء الأماكن. ولعل سيرة بو مدين كانت غائبة عن الربيع أثناء كتابته، وما وجد من تلاق فني فهو من مذخور ثقافي أصبح بنية فنية لا إرادة للربيع في استدعائها إن صح التعبير.

ولا يقتصر التناص على التناص الأدبي، بل إن التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف حققا حضورا أكثر، سواء كان هذا التناص معنوياً، وهذا ظاهر في رؤية الكاتب الفكرية؛ فهو صاحب التزام إسلامي إلى أقصى درجات الالتزام، أو كان التناص لفظياً شكلياً.

ومن الأمثلة على التناص القرآني اللفظي والمضموني قوله معلقا على رئيس احدى الإدارات كان: (يتناول مرتبا شهريا لا يتعدى الثلاثين ريالا وهو أضخم مرتب يتقاضاه موظف، فكان إذا سار في الطريق ورأيته يمشي ذكرت تلك المشية التي نهى الله عنها لأن صاحبها لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا)[1].

ويتنوع التناص عند الربيع في النص الواحد فنجد القرآن والحديث النبوي والشعر، فقد كتب تحت عنوان (بطل... لمرة واحدة) قائلا: (وكان من رفاقنا في الحي رفيق يكبرني سنا ولسبب لا أدريه كان مولعا بشتمي وإيذائي والإساءة إلي، ربما لأنني كنت أكثر الأطفال هدوء وأرقهم حاشية وأبعدهم عن الخشونة ومحبة الاعتداء. ولقيت من رفيقي عنتا وظلما وحاولت بالرجاء أن أقنعه بتركي والامتناع عن التعرض لي. ولكن دون جدوى. وأوفدت له الوسطاء والشفعاء علهم ينجحون فيما فشلت فيه، ولكن أبى وركب رأسه، وأصر واستكبر، وباءت كل محاولاتي بالإخفاق، بل إن محاولاتي زادته عتوا وعنادا، فأمعن في الشر والإيذاء. ووجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه حتى لقد فكرت في أن أقبع في البيت أو أهرب من الحارة.

وحدث وأنا أعيش وسط هذه الدوامة من التفكير المرهق أن لقيني رفيقي المشاكس فأصلاني نارا حامية من سبابه وشتائمه حتى بلغ السيل الزبى ولم يبق في قوس الصبر منزع. وفجأة وبدون أي إعداد مسبق وجدتني أنتفض من مكاني ثم أنقض على رفيقي الذي يكبرني سنا ويفوقوني قوة كما ينقض الأسد الضاري على فريسته ويبدو أن المفاجأة قد شلته تماما فإذا به يستسلم، ويتلقى الصفعات التي كانت تنزل عليه بدون هوادة أو رحمة، وكل همه الخلاص بجلده من هذا المأزق، وإذا به يستغيث ولا مغيث، ويستنجد ولا منجد، وينادي ولا مجيب، ويبدو أن المفاجأة قد فعلت فعلها في نفوس الرفاق فهم واقفون واجمون، ولا يكادون يصدقون أعينهم، وأتاح لي ذلك فرصة ذهبية أريت فيها رفاقي ألوانا من الصفع والضرب والبطولة الخارقة. وأخذ هو يطلب العفو، ويرجو الصفح، ويعلن الاستسلام. وتدخل أخيرا بعض المارة من الرجال؛ ففضوا هذه المشاجرة وأنقذوا رفيقي من هذا المأزق الذي وقع فيه.. وكانت تلك المعركة بداية عهد جديد إذ أنقذتني من هم مقيم مقعد، وأزاحت عن كاهلي عبئا كان ينوء به، وفتحت لي مكانا في صدور الزملاء والرفاق، وكان رفاقي كلما ذكروا الحادث يعجبون مما حدث ولعل لسان حالهم يقول: (اتق ثورة الحليم إذا غضب) أما انا فكان لسان حالي يقول:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا الركوب)[2]

التناص اللفظي والمعنوي يتزاحم في ثنايا النص فمن القرآن الكريم قوله: أصر واستكبر والتي اقتبسها من قوله تعالى: (أدبر واستكبر).

---

[1] مذكرات طفل وديع : ٨٠

[2] السابق : ١٩٩- ٢٠٠

ومن الأمثلة على التناص من الحديث الشريف قوله معنونا أحد الموضوعات:(الشباب شعبة من الجنون) فهو يتناص مع الحديث النبوي الشريف (الحياء شعبة من شعب الإيمان).

وهو يتناص مع الأقوال المأثورة؛ مثل: اتق ثورة الحليم إذا غضب، وكذلك قوله: بلغ السيل الزبى، ولم يبق في قوس الصبر منزع.

ويستعين بالمأثور الشعري الذي استقاه من الشاعر الكميت الأسدي في البيت السابق.

ولكن أخطا في الكلمة الأخيرة والصواب: ركوبها.

ومن الواضح أن الشاعر في تعبيره عن تجربته لا يستدعي التناص مع هذه الأحاديث النبوية، وغيرها بل أتى ذلك دون تكلف أو تصنع.

وكثيرا ما يذيل الربيع موضوعاته بآية أو حديث أو بيت أو قول مأثور. وأسلوبه هذا يكشف ميله للحكمة وشغفه بها واستحضارها في إبداعه.

هكذا نستطيع القول أن التناص أدّى دوراً بارزاً في إثراء ذكريات الربيع المستقاة من سيرته والمدللة على سعة ثقافته العربية، وقد اكتسبت هذه السيرة تعددية من سياقات أخرى مع احتفاظها بخصوصيتها التي تعكس سمات كاتبها عبدالعزيز الربيع.

٩) أسس السيرة الذاتية:

لقد قامت ذكريات الربيع على الاختيار؛ والمواقف والأحداث التي انتقاها إما تحمل إضاءات عن شخصيته، أو تحمل إضاءات عن بيئة المدينة العلمية، لقد حاول الربيع استرجاع سيرته وذكرياته، ولاشك أن نظرته للأحداث قد تغيرت بسبب اختلاف الرؤية مع تقدم السن وتغير الحياة، يقول د: إحسان عباس: والذاكرة(لا تنسى فحسب بل هي تفلسف الأشياء الماضية، وتنظر ليها من زوايا جديدة، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغيرها، وتجد التعليل والمعاذير لأشياء سابقة لأنها في عملية كشف دائم)[١]. ويمكن إجمال أسس سيرة الربيع في مذكراته بمايلي:

أ- الصدق والصراحة:

يرى بعض النقاد أن النسيان والاختيار ينافي الصدق والصراحة، وفي رأيي أن ذلك مما يزيد من قيمة السيرة، لأن اختيار الكاتب والأمور التي لم ينسها تعطي دلالة على ميول الكاتب وتوجهه ويفصح عن شخصيته الواعية التي يعيش بها مع المجتمع، وقد جاءت الموضوعات التي استرجعها الربيع من ذاكرته معززة للهدف الذي كتب من أجله سيرته؛ وهو حال التعليم في ذلك الوقت حسبما طلبت منه صحيفة البلاد، إضافة إلى ذلك فإنها أضاءت لنا جوانب شخصيته وبيئته الزمانية والمكانية، ولذا جاء استخدام الربيع لضمير المتكلم يعزز مصداقية هذه المذكرات، فهو لم يهرب من المواقف التي سردها، ولم يخف شخصيته عن المتلقي، بل إنه لم يحصر القارئ على الواقع الخارجي المتصل بالبيئة الزمانية والمكانية وما فيهما من أحداث بل تعداه إلى الوصف بكل صراحة للجانب الداخلي الذاتي في حال ضعفه و في حال فرحه، ولا أدل على ذلك من نقد الوداعة التي تميزت بها شخصيته.

ب- الصراع:

تناول النقاد الصراع في السيرة بالحديث[٢]، وبينوا أهمية وجود هذا العنصر، يقول إحسان عباس (إن حظ السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي أو شدة الصراع الخارجي

---

[١] إحسان عباس ، فن السيرة ص:١١٤

[٢] انظر على سبيل المثال خلود محمد عدوان ، غربة الراعي بين النظرية والتطبيق ، دار الراية ، عمان ، ط١ ، ٢٠١٠ ص ٩٧

في كتابته)[1]، واستطاع الربيع من خلال سرده لذكرياته والمواقف التي سردها من إظهار هذا العنصر سواء في المواقف التي كان يرويها عن غيره – فيظهر الصراع الخارجي في وصفه – أو في المواقف التي كان يظهر ضيقه منها وعدم قدرته على المواجهة والرد؛ فيتتبع الصراع الداخلي الذي كان يعتمل في داخله، من ذلك ما أورده تحت عنوان (ظلم كاد يعصف بحياتي) حيث ذكر ما تعرض له من ظلم بسبب موقف أحد الطلاب الذي سرق(موسى) أي قلامة الأظافر في المدرسة، واتهم عبدالعزيز الربيع بسرقته وقد وصل الأمر إلى المدير، ولم يستطع الربيع الرد عن نفسه يقول في ذلك: (واستدعاني المدير ووجه إليّ عددًا كبيرًا من الأسئلة شعرت منها أن التهمة تكاد تنحصر في. وانهارت أمام عيني كل القيم التي ربيت ونشأت عليها واسودت الدنيا أمام ناظري وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني. وفقدت كل مقوماتي. وشعرت أنني أعيش في خواء. وتصورت العيون وهي ترمقني باحتقار وسخرية، وتنظر إلي نظرتها إلي شقي منبوذ بعد أن كنت مضرب المثل في الأدب والخلق والسلوك. ومع أن المدير لم يعاقبني ولم يوجه إلي عبارة فيها زجر أو تأنيب فقد خرجت من غرفته تلفني الخيبة والذل والامتهان. ولست أعرف ماذا حدث بعد ذلك. ويبدو أن إحساساً داخلياً كان يسيطر على المدير بأنني براء من هذه القضية. وربما شهد كل أساتذتي بما يعرفونه من خلقي وأدبي وصفاتي العالية شهادة كان لها أثرها في هذه النتيجة. ولا يبعد أن يكون الشعور السائد بأن السارق الحقيقي هو الزميل المحترم.

ولكن برغم كل ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة هزت كياني وكادت تودي بحياتي. وقضيت فترة تزيد عن الشهر وأنا مشتت الفكر، محطم الأعصاب، مهزوز النظرة، ألعن في سري كلما فاءت نفسي إلى بعض الهدوء أو الرضا هذا الأسلوب الذي تربيت عليه لأنه أسلوب مثالي فهو بعيد عن الواقع وغير عملي.

كم تمنيت أن أكون كزميلي (السارق) في الجرأة والوقاحة والخفة والشعور المتبلد والاستهانة بما يسمى (بمكارم الأخلاق).

يا الله... كم هو مرٌّ طعم الظلم. إن المرارة لا تزال على طعم لساني من جراء الظلم الذي سببته لي تلك (الموسى) أو تلك الحملة التفتيشية، فكم تمنيت أن أنال عقابا مضاعفا لإهمال قص أظافري ولا أتعرض لبعض ما تعرضت له من جراء تلك التهمة الكاذبة.

لو أن تلك الموسى وجدت طريقها إلى قلبي أو جسمي لكان ألم ذلك أهون بكثير من الألم الذي تجرعت صابه في طفولتي.. ولا تزال مرارته على لساني حتى اليوم. لعلي لم أحقد على إنسان في حياتي كما حقدت على الزميل المفضال (سارق الموسى) ذلك المجنون الذي انتصر بجنونه على العقل، وبوقاحته على الأدب، وبرذائله على مكارم الأخلاق)[2].

لقد استطاع الربيع أن يسيطر على مشاعرنا من خلال وصفه للصراع الداخلي الذي عاشه، وحقاً فإن هذا النوع من الصراع (يمنح السيرة الذاتية العمق والأصالة)[3].

ج – النمو والتطور:

من الأسس المهمة التي تزيد من قيمة السيرة النمو والتطور، وذكريات الربيع كانت تهدف إلى نقل التطور الذي شهدته المدينة والتعليم فيها، وقد تجسد ذلك من خلال شخصية الربيع الذي كان ينمو نفسيا وعلميا واجتماعيا مع مجتمعه،

---

[1] فن السيرة : ١٠٦

[2] ذكريات طفل وديع : ص ٢٢١- ٢٢٣

[3] خلود محمد عدوان ، غربة الراعي بين النظرية والتطبيق ص ٨٨

وقد صورت الذكريات حياة واقعية بما فيها من أحزان وآلام، وظهر فيها التطور الذاتي الداخلي عند الربيع والخارجي، لقد كان الربيع ينقل إحساسه بالتغير الدائم في المواقف المختلفة وتفاعله مع المحيط الخارجي، واستطاع أن ينقل مشاعره وأفكاره المتغيرة من خلال الأحداث الخارجية المتغيرة مع التغير الزماني والمكاني والحدثي لذا منحت هذه المذكرات المتلقي صورة تاريخية ألمت بمجتمع المدينة ونقلته عدسة الربيع بكل مصداقية وصراحة وشفافية.

وقد كان تتبعه لسيرته مرتبطا بالبيئة المكانية(المدينة المنورة) حيث بين النمو الذي مرت به المدينة النبوية، والتغير الاقتصادي الذي طرأ عليها، وقد برزت أهمية هذا التطور الذي انعكس على شخصية الربيع الذي أحس بشيء من الألم بسبب عدم امتلاكه للمال الكافي لشراء منزله القديم الذي شهد ذكريات الطفولة، وقد قد زاد من أهمية المدينة في الذكريات إحساسه العميق بها، إضافة إلى أهميتها الروحانية عند كل مسلم، ولا نغالي إذا قلنا : إن المدينة كانت بطلا إلى جانب أبطال الذكريات [١].

لقد كتب الأديب الربيع ذكرياته، وجاء مضمون هذه الذكريات متفقا مع الشروط التي تزيد من قيمته[٢]؛ فسيرة الربيع في ذكرياته واقعية استمدها من الواقع الذي عاشه، وقد قدمت تصورا إسلاميا للواقع فلم تحمل هذه الذكريات أفكارا مضادة للتصور الإسلامي، كما أن الكاتب كان يهدف من خلال طرحه إلى معالجة بعض القضايا الاجتماعية ومن ذلك ما يظهره من مواقف كثيرة تحمل بعدا إسلاميا في التعامل الراقي مع جميع فئات المجتمع من معلمين وطلاب وحراس وفراش؛ فلا طبقية في التعامل، وكل ينظر له حسب عمله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وهو بذلك قدم صورةً مشرقةً للدين وللعلماء من خلال سرده القصصي للمواقف التي أوردها في مذكراته.

عكست ذكريات الربيع صورة الأدب الهادف الفاعل، الأدب الإنساني الذي يخدم الحياة ويطور المتلقي تطويرا إيجابيا واقعيا [٣].

لقد كتب عبدالعزيز الربيع تاريخ المدينة الثقافي والتعليمي بلغة خاصة مكنته من الوصول إلى كافة فئات المتلقين على اختلاف ذائقاتهم الفنية، وميولهم العلمية، وقد زادت العفوية بالطرح، والصدق في النقل حديث الربيع المباشر جمالاً وعلوقاً فأتت الذكريات تحمل جدة في القول وأصالة في الطرح.

---

(١) يرى بعض النقاد ان المدينة في العمل الروائي تقف بطلا من أبطال الرواية . انظر الشايع، مها عبدالعزيز، شخصية المثقف في الرواية السعودية، ، وزارة الثقافة والإعلام، الرياض ، ط١ ، ١٤٣٠هـ . ص ٢١٩.

(٢) انظر تفصيلا لهذه الشروط مأمون فريز جرار ، خصائص القصة الإسلامية ، دار المنارة ، جدة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ص ١٨٨- ١٩٣

(٣) انظر تفصيل السمات محمد حسن بريغش ، الأدب الإسلامي أصوله وسماته ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط١ ، ١٤١٧هـ ص ١٢٢-١٣٣؛ وانظر صالح آدم بيلو ، من قضايا الأدب الإسلامي ، دار المنارة ، جدة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ، ص ٧١- ٧٨

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة موضوع:(فضاءات السيرة الذاتية في ذكريات طفل وديع) ، وقد كانت الوداعة التي يرفضها الربيع بمثابة الشرارة التي أوقدت عزيمته ، وألهبت حماسه أثناء كتابة بعض موضوعات الذكريات، إذ انعكس ذلك على أسلوبه، فدفعه إلى التمحور على ذاته في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان حقق انعتاقا تاما من تجاربه الخاصة؛ فتفاعل مع ما يجري حوله في الحي والمدرسة والشارع.

وفي نهاية التطواف النقدي مع هذه الذكريات يمكن إيجاز ما وصلت إليه من نتائج وتوصيات فيما يلي:

أ- النتائج:

أولا: رسمت ذكريات طفل وديع واقع المدينة المنورة التاريخي والاجتماعي والثقافي والعلمي الذي شهدته في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وقد أظهر وصفه البون الشاسع بين جيلين؛ جيل الآباء الذين يمثلهم عبدالعزيز الربيع، وجيل الأبناء الذين يمثلهم ابن صاحب الذكريات والذي خصه بإهداء هذه الذكريات.

ثانيا: اتضح أن الكاتب مع أن حديثه في الذكريات كان عفويا مباشرا إلا أنه استطاع أن يخرج عملا فنيا استطاع أن يأخذ مكانة مرموقة بين السير الذاتية.

ثالثا: نوّع الربيع عناصره الفنية في عرضه لسيرته؛ إذ لم يقتصر على النمط السردي العادي، حيث لجأ للوصف، واسترجاع الماضي، والانتقال منه إلى المستقبل.

رابعا: خص الربيع ذكرياته في مرحلة الطفولة، فسجل ذكريات هذه المرحلة العمرية الهامة، والتي يعدها التربويون أهم المراحل العمرية التي تشكل شخصية الإنسان، وأردفها بما خطر على باله من أفكاره وما أحسه من مشاعر، فجاءت إردافاته في بعض مواقفه متغيرة لفارق النظرة والتقييم بينما كانت عليه شخصية الطفل الوديع، وما أصبحت عليه شخصية الرجل الأديب، وبعض الإردافات جاءت تحمل المشاعر ذاتها بحلاوتها ومرارتها لم يغيرها مر السنون ولا تغير المكان، فلا زالت في نفس الربيع كلما تذكرها يرجع الشعور ذاته إليه، بمرارته أو حبوره وفرحته، وقد ساعده ذلك على طرحها بصدق وصراحة دون تغيير.

خامسا: إن الذكريات التي حدد الكاتب حدودها الزمانية بمرحلة الطفولة قد أماطت اللثام عن شخصية الربيع، فالمواقف التي سجلها وتعليقه عليها أظهرت لنا الأديب الربيع بصفاته وأخلاقه؛ فالقارئ يخرج وقد ألم بصفاته المختلفة، بدءاً بصفة الوداعة التي نص عليها بالعنوان وأكدتها المواقف، ثم صفة الاحترام والتقدير لكل إنسان يحمل رسالة وهدفا نبيلا دون النظر لمنصبه أو مكانته الاجتماعية، ثم صفة الحب للعدل والرحمة والتعاون وبذل الندى وكف الأذى والإحسان والكرم والتقوى، وتزيد هذه الصفات ثباتا في ذاته الثقافة الواسعة الملمة بالثقافة الإسلامية والعلوم الإنسانية والآداب، فقد زين ثقافته الأدبية بأخلاقه العالية وسجاياه الحسان التي بوأته مكانة بين أهله وأصدقائه ومعلميه ومعارفه الأباعد والأقربين. هذا ما بدا لي من قراءاتي عن هذا الأديب وأكدته (ذكريات طفل وديع).

ب- التوصيات:

أخيرا أوصي المهتمين بالأدب بمضاعفة الاهتمام بسير الأدباء الإيجابيين، والإسهام بإخراج هذا المذخور الفني، وإعادة قراءة هذه الآثار الأدبية الهادفة. كما أوصي المهتمين بالتربية والتعليم بتوجيه أنظار الناشئة والطلاب إلى هذه السير لقراءتها والاستفادة منها؛ وسير العظماء والرواد لها دور لا ينكر في إعادة تشكيل الشخصية وتجديد حيويتها ومضاعفة فاعليتها وإيجابيتها.

المراجع

١- إحسان عباس، فن السيرة، ط٢، بدون تاريخ، دار الثقافة، بيروت.
٢- بريغش، محمد حسن، الأدب الإسلامي أصوله وسماته، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٤١٧هـ
٣- بيلو، صالح آدم، من قضايا الأدب الإسلامي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ
٤- بيومي، مصطفى، التناص النظرية والممارسة، مطابع الحميضي، الرياض، ط١، ١٤٣١/هـ
٥- الباردي، محمد ، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
٦- البلهيشي، محمد صالح، لمحات عن حياة الربيع ، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي ، ط١، ١٤٠٢هـ .
٧- جرار، مأمون فريز، خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٠٨هـ
٨- خلود محمد عدوان، غربة الراعي بين النظرية والتطبيق، دار الراية، عمان، ط١، ٢٠١٠هـ.
٩- الربيع، عبدالعزيز، ذكرات طفل وديع، ط٢، ١٤٠٢هـ، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي.
١٠-الشايع، مها عبدالعزيز، شخصية المثقف في الرواية السعودية، ، وزارة الثقافة والإعلام، الرياض ، ط١ ، ١٤٣٠هـ .
١١-الشنطي، محمد صالح، الأدب العربي الحديث، دار الأندلس، حائل، ط١، ١٤١٣هـ .
١٢-الشنطي، محمد صالح، في الادب الإسلامي، قضاياه وفنونه، دار الأندلس، حائل، ط٢، ص١٤١٨ هـ
١٣-صحيفة الرياض الخميس ٧ صفر ١٤٣٤ هـ -٢٠ ديسمبر ٢٠١٢م - العدد ١٦٢٥٠ فاروق صالح باسلامة.
١٤-عدوان، خلود محمد، غربة الراعي بين النظرية والتطبيق، دار الراية، عمان، ط١، ٢٠١٠م.
١٥-فيليب لوجون (السيرة الذاتية) ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١. ١٩٩٤م، ص٢٢، نقلاً عن جميل حمداوي فن السيرة الذاتية، التنوخي للنشر. ط١ ٢٠١٠م.
١٦-قاسم ، سيزا ، بناء الرواية(دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
١٧-قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط٦، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٠هـ.
١٨-الكيلاني، نجيب، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٩-مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، ط٢/ ١٩٨٦م.
٢٠-المناصرة، عز الدين، علم التناص المقارن، عمان دار مجدلاوي، ط١ ١٤٢٧هـ.

ملحق موضوعات من ذكريات طفل وديع

يستطيع القارئ الكريم أن يتلمس ما قدمته هذه الدراسة من فضاءات وأبعاد وأسس للسيرة الذاتية لصاحبها عبدالعزيز الربيع رحمه الله .

ملحق (١)

ولمجلة العروبة قصة[١]

كان من مشروعاتنا في السادس الابتدائي إصدار مجلة خطية، وقد عقدنا بسببها عدة جلسات تحت إشراف أحد أساتذتنا الأفاضل، اتفقنا فيها على اسم المجلة وطريقة إصدارها وتمويلها وكتابتها.

وأخذنا في كتابة المقالات، ولم يمض طويل وقت حتى أصدرنا العدد الاول باسم العروبة وكانت فرحتنا بصدوره لا تحد وقد كتبناه بأيدينا. وتوالى بعد ذلك إصدار أعداد أخرى.

وقد كان إصدار هذه المجلة نشاطا جديدا يضاف إلى نشاطاتنا الأخرى، ولم تكن مجلتنا من نوع مجلات الحائط، ولكنها كانت شبيهة بأي مجلة من المجلات التي يعرفها الناس، ولم تكن تختلف عنها إلا في أن تلك المجلات مطبوعة ومجلتنا خطية نكتبها بأيدينا.

وقد أحدث صدورها في مجموعتنا حيوية وتنافسا وعملا دائبا، واندفعنا نقرأ ونتابع ما كان يصدر من مجلات في ذلك العهد، ونحاول أن نقتبس منها كل جديد في الإخراج والتحرير، كما كنا نبدع المقالات وننظم القصائد والمقطوعات ونمارس الوانا من النقد.

ولو قدر لمجلتنا هذه أن تستمر؛ لأتاحت لعقولنا فرص التجديد والابتكار، ولأقلامنا مجال التجديد والاقتناء، ولكن سارت الامور على غير ما نشتهي ونريد.

فقد جاءنا أستاذنا المشرف ذات صباح متجهم الوجه كئيب النظرة، ونقل إلينا في تأثير بالغ ونبرة حزينة رغبة مدير المدرسة في إيقاف إصدار هذه المجلة، وكنت هذه الرغبة أو هذا (الأمر) صدمة عنيفة بالنسبة لنا. وسألنا عن السبب فعلمنا بعد لأي أن السبب يعود إلى مقالة نشرت في إحدى الصحف التي كانت تصدر في تلك الأيام، وقد ندد فيها كاتبها بالطلاب الذين ينصرفون عن دراستهم إلى الانشغال بالعبث وتوافه الأمور، وذكر ان انشغال الطلاب بإصدار الصحف الخطية نوع من العبث لذي لا يليق: لأنه يصرفهم عن دراستهم ويضيع أوقاتهم فيما لا يجدي ولا يفيد، بالرغم من أننا كنا نسير في دراستنا على نظام شبيه بنظام اليوم الكامل، بالإضافة إلى أن سنتنا الدراسية كانت تبدأ بغرة المحرم وتنتهي بنهاية شهر ذي الحجة. أي أن سنتنا الدراسية كانت اثني عشر شهرا لا نعرف فيها من الإجازات إلا إجازة عيد الفطر وإجازة عيد الأضحى، فكل إجازاتنا السنوية كانت منحصرة في هذه الأيام الثمانية لا تزيد يوما ولا تنقص يوما، فإذا قست سنتنا الدراسية تلك بالسنة الدراسية في العشرين سنة الأخيرة لوجدت ان سنتنا الدراسية تعادل بالفعل ثلاث سنوات دراسية. وليس في الأمر مبالغة أو تهويل.

فبالرغم من طول السنة الدراسية هذا الطول العجيب، وبالرغم من ان إعداد هذه المجلة لم يكن يأخذ من وقت الدراسة قليلا ولا كثيرا؛ فإن الكاتب المفضال أشفق (مشكورا) على دراستنا ودروسنا. والأمر المزعج حقا هو أن مديرنا خشى مغبة هذا المقال، فأبى إباء تاما أن يتقبل فكرة السماح لنا بمواصلة إصدار مجلتنا العزيزة على نفوسنا، فودعنا قرائنا بعدد أخير أصدرناه بافتتاحية طريفة لم يسبقنا إليها أحد في تاريخ

[١] ذكريات طفل وديع ١٠٧

الصحافة (فيما أعلم) فقد كانت الافتتاحية قصيدة هجاء في الكاتب المفضال الذي وقف بمقاله حجر عثرة أمام (عروبتنا) وفي طريق طموحنا ومن الواضح أننا لم نصرح باسم المهجو ولكن قراء مجلتنا (وهم ليسوا كثير على أية حال) كانوا يعرفون الغرض الذي رميناه، وكانت تلبسهم حال انتشاء كلما قرأوا القصيدة وترنموا بأبياتها، وإن كان من المؤكد أن المرمي لم يعرف خبر هذه القصيدة ولم يعرف أنه بمقالته تلك صار مضغة في الأفواه، والطريف أن قافية القصيدة كانت على حرف الظاء، وهو من أصعب القوافي إن لم يكن أصعبها على الإطلاق ولم يبق في ذاكرتي من القصيدة إلا بيتا واحدا:

قلتم وقلنا وقال الناس أجمعهم هذا وذلك لذيذ الشهد والقرظ

ويستطيع القراء أن يجدوا فيما قدمته مجالا للمقارنة بين مدارس تلك الأيام وبين مدارسنا الحديثة، وستكشف لهم المقارنة مدى النقلة الكبيرة التي انتقلتها بلادنا في فترة زمنية قصيرة لا تعتبر شيئا بالنسبة لأعمار الأمم.

فبينما كان محررو الصحف في تلك الأيام ينظرون إلى الصحف المدرسية تلك النظرة المحدودة الضيقة، ويعتقدون أن اهتمام الطالب بها ليس إلا نوعًا من العبث لا يليق بالمدارس ولا يجمل بدور العلم، ثم لا يكتفون بهذا الاعتقاد بل يعلنونه للناس ولا يكتمونه، ويتصورون أنهم بذلك يقدمون خدمات لبلادهم وأمتهم. أقول إنه بينما كان بعض محرري الصحف في أيامنا تلك ينظرون إلى الصحف المدرسية تلك النظرة الضيقة الممعنة في الضيق، وبينما يتخوف مدير المدرسة من تمكين طلابه من ممارسة هوايتهم مدفوعا بنفس ذلك التصور، أو بتصور مشابه نجد اليوم أن الصحافة المدرسية تأخذ مكانها اللائق بها في مجال التربية، فترعاها الدولة وتوليها ما تستحق من عناية، وتقدم لها كثيراً من وسائل الدعم المادي والمعنوي، بما في ذلك من إسهام كبار المسؤولين في الدولة بكلمات ومقالات، أو تحقيقات صحفية أو استطلاعات.

ويتولى المشرفون على رعاية الشباب في الحكومة وضع الخطط، والتنظيمات، والمسابقات لهذا اللون من النشاط الهادف البناء. ويتبارى الطلاب في المدارس والجامعات لا على صحف حائطية أو خطية بل على إصدار مجلات دورية، وصحف شهرية مصورة مطبوعة.. إنها نقلة كبيرة.. و يا لها من نقلة.. بل إنه التطور الكبير الذي يستثير الدهشة ويدعو إلى الإعجاب.

ملحق (٢)
نجار .. يخلع الضرس.. بريال[1]

ولهذا الضرس مع هذا النجار الطبيب قصة يجب أن تروى. وإذا كان خلع الأضراس أو قلعها (لست أدري) في هذه الأيام من الأمور السهلة التي لا تتطلب جهدا كبيرا ولا مالا كثيرا؛ بسبب توفر المستشفيات العامة والعيادات الخاصة، فإن قلع الضرس أو خلعه (لست أدري مرة ثانية) في تلك الفترة التي أتحدث عنها كان حدثا هاما لأسباب ثلاثة:- أحدها أنه لم يكن في المستشفى قسم خاص للأسنان، وثانيا أنه لا سبيل إلى علاج الضرس إلا بالخلع أو القلع وثالثهما وهو الأهم أن أحلى الأمرين الخلع أو القلع (وأنا أجهل أيهما الأحلى) لا يتم إلا بمقابل مبلغ ضخم.. ريال كامل.

وريال كامل يعني خمس مرتب موظف، أو سبع مرتب موظف ثان، أو عشر مرتب موظف ثالث.

وأذكر قصتين صغيرتين بهذه المناسبة، فقد فُقِد مبلغ نصف ريال من دكان من الدكاكين التي تقع في حارتنا، وثار صاحب الدكان، واتجهت التهمة إلى طفل صغير من جيراننا، وشغلت هذه القضية مجموعة من السكان يوما كاملا، ولم تنته إلا عندما عثر صاحب الدكان على نصف ريالـه، ومن المؤكد أنه لو لم يعثر عليه لتعقدت القضية تعقيدا يصعب حله.

هذه إحدى القصتين، أما القصة الثانية وكنت أنا بطلها الأول وأخي الصغير بطلها الثاني، وخلاصتها اني كنت أحمل ذات يوم أخي الصغير الذي لم يكن قد تعود المشي بعد، وتشاء الظروف أن أجلسه على مقدمة دكان اعتاد صاحبه أن يضع عليه الخبز ليبيعه للناس، ويبدو أنني شغلت باللعب عنه، وعندما عدت إليه أخبرني صاحب الدكان أن أخي قد جر رغيفا وأكل جزءا منه، وطالبني بربع قرش ثمن الرغيف، ولما كنت لا أملك المبلغ فقد استمهلته قليلا، ولم أشأ أن أذهب إلى أبي لأطلب منه المبلغ؛ حتى لا يعرف أنني أهملت أخي وتركته وحده وذهبت ألعب. فانطلقت إلى رجل مسن من معارف أبي وطلبت منه نصف قرش وكم كان سروري حين أعطاني قرشا كاملا، وعدت إلى صاحب الدكان لأدفع له ثمن الرغيف ربع قرش: ففاجئني عندما أخبرني أن أبي مر قبل قليل وأخبره بالقصة وأخذ منه ثمن الرغيف، وتصورت أن أبي سيلومني على ما حدث أو يزجرني.. ولكن أبي لم يفعل شيئا من ذلك ولم يزد على أن أبلغ أمي بالموضوع.

والشاهد في القصتين أن الرجل الأول لم يطق صبرا على فقد نصف ريالـه، كما أن الثاني لم يقدر على الانتظار ريثما أعود إليه لأدفع له ربع القرش.

هذه هي القيمة الشرائية للريال. وفي هذه الظروف تعرض أحد أضراسي لألم شديد نتيجة تسوسه، ولم تجد تهدئته المسكنات، وعلم أبي بالأمر فأعطاني ريالا لأدفعه ثمنا لخلعه، وطلبت من أحد زملائي بالمدرسة أن يرافقني في مهمة خلع الضرس، ولكن زميلي فاجأني بخبر طريف وهو أن الحاج عبدالله يخلع الضرس يوم الجمعة مجانا في منزله. والحاج عبدالله معلم نجار يجمع بين النجارة وخلع الاضراس، وقد خصص يوم الجمعة من كل أسبوع لخدمة المسلمين بخلع أضراسهم مجانا، وأخذ زميلي يمتدح أخلاقه، ويثني على براعته، ويطنب على ذكر محاسنه. واقتنعت بأقوال صديقي وكان علي نتيجة لهذا الاقتناع أن انتظر ما يقارب الأسبوع، وانتظرت متحملا الكثير من الآلام من أجل أن أحتفظ بثروة.. بريال كامل.

وزرت الرجل مع زميلي في يوم الجمعة وكان الأمر كما قال.. بارك الله في الحاج عبدالله النجار.. الطبيب وفي زميلي الذي أوصلني إلى الحاج عبدالله.. الطبيب.. النجار، وشكر الله لزميلي وللحاج عبدالله جهودهما في إزالة ألمي وفي.. توفير ريالي.. وياله من ريال.

---

[1] ذكريات طفل وديع ١٤١

ملحق (٣)
امرأة تخيف كلبا[١]

كان من التقاليد المتبعة في الفترة التي أتحدث عنها والتي تمتد إلى ما قبل ذلك بكثير عناية السكان بالطعام، ومن أبرز مظاهر هذه العناية اهتمام البيت به، فكان كل شيء يصنع في المنزل و يطبخ فيه ولم يكن يستعان بالطباخ إلا في حفلات الزواج أو السابع أو "القيلات" خارج المدينة، أو في الدعوات التي يصل فيها عدد المدعوين إلى بضع عشرات، أو التي تقام في أماكن خالية من النساء.

أما في غير ذلك فإن ربة البيت هي المسؤولة عن إعداد الطعام لضيوفها وضيوف زوجها و إذا كانت الدعوة كبيرة نوعا ما فإنها تستطيع الاستعانة ببعض قريباتها أو جاراتها..

كان الأكل في السوق (لغير الغرباء) من الأمور المستنكرة والمستهجنة حتى شراء الخبز من السوق (لغير الغرباء وأبناء السبيل)، كان لا يلجأ إليه إلا في حالات الضرورة كأن تكون ربة البيت مريضة مرضا معقدا ولا يوجد لها بنات أو قريبات أما عدا ذلك فإن تخمير الخبز (ويسمونه العيش) وإعداده للخبز من أهم واجبات ربة المنزل وكان السكان أو كثرتهم الكاثرة تشتري الحنطة وتنظفها ثم تطحنها في المطاحن وتخمرها وتعجنها بعد أن تضيف إليها ألوانا من البهارات، ثم تدفع بها إلى المخابز أو الأفران فيأتي الرغيف (ويسمونه قرصا (حسن المظهر والمخبر فحنطته نظيفة وطريقة عجنه وإعداده خالية من أي شائبة والبهارات التي أضيفت إليه تسبغ عليه نكهة جميلة.. ولذلك فإن الرغيف وحده يفتح الشهية ولو أكله المرء بدون أن يخلطه بأي شيء من المقبلات أو اللحوم أو الخضروات لوجده شهيا فما بالك إذا أضيف إلى هذا الرغيف ألوان من الطعام أعدت في المنزل بنفس العناية التي أعد بها الرغيف.

وقد بلغ من العناية بإعداد الطعام في المنزل أيا كان نوعه أن المرأة التي ليس لها زوج ولا أولاد ذكور، كانت تعجن الأرغفة في منزلها، ثم تضعها على لوح من الخشب، وتغطيها، وتضع المبلغ المطلوب للخبز على جانب من اللوح، ثم تضع اللوح أمام باب منزلها، فإذا مر أي رجل مهما كانت حيثيته أخذ اللوح، أو كلف من يأخذه، ثم يذهب به إلى الفرن فيخبزه، ثم يعيده ويضعه مكانه، فتفتح ربة البيت منزلها، وتأخذ خبزها بدون أي سلام أو كلام..

وهذه الصورة لا تعطي فكرة عن مدى عناية أهل المدينة بنظافة ما يأكلونه فحسب، ولكنها تعطي فكرة عن مدى ما كان يربط السكان من روابط المودة والتآخي والتكاتف والتعاطف والتراحم في أمانة وإخلاص وصدق.

هذه مقدمة لابد منها للقصة التي سأذكرها فيما يلي:

فقد كنت أكبر أخوين، ومعنى هذا أنني كنت في سن تسمح بأن أتولى بعض شؤون المنزل الخارجية، وفي مقدمتها إيصال الخبز إلى المخبز (وكانوا لايزالون يسمونه الفرن) لخبزه ثم إعادته إلى المنزل، وكنت أتولى هذه المهمة في هدوء حتى حدث ما عكر صفو هذا الهدوء، وكان سببا في كتابة هذا الفصل. ففي ركن من الساحة المجاورة للزقاق الذي يقع فيه منزلنا آثرت كلبة أن تضع جراءها، وحدث أن حملت لوح الخبز وانطلقت إلى الفرن لخبزه، وعنما حاذيت المكان المختار للكلبة ولسبب غير مفهوم؛ تركت الكلبة السوداء الضخمة ركنها وانطلقت نحوي كالسهم، وهي تنبح نباحا عاليا تريد أن تهاجمني، وبصورة لا شعورية سقط

[١] ذكريات طفل وديع ١٦١

اللوح على الأرض، وأسلمت ساقي للريح، فلم أقف إلا أمام باب بيتنا، ودققت الباب بالدقاقة دقا عنيفا متصلا، وبادرت أمي إلى فتح الباب، فدخلت وأنا أرتجف خوفا وقصصت على أمي ما حدث لي وللخبز بسبب الكلبة الشرسة.

وهدأت أمي من روعي ثم قامت بسرعة ولبست ملائتها وقالت لي: هيا بنا. وظننت أن أمي ستذهب إلى بيت الجيران لتستعين به، ولكن حدث مالم يخطر على بال فقد انطلقت أمي بنشاط (وكانت في عز شبابها) تجاه المكان التي تقطن فيه الكلبة المتنمرة، وكدت أصرخ في أمي لأحذرها من شر تلك الكلبة، ولأمنعها من الوصول إلى حيث تقيم، ولكن المفاجأة ألجمت لساني وفمي، واكتفيت بأن أمسكت بملاءة أمي، والتصقت بها وأنا أنظر إلى الكلبة بنظرات يأكلها الخوف، متوقعا هجوم الكلبة بين لحظة وأخرى، وظللت فترة من الوقت نهبا للوسواس والظنون، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي عما يمكن أن فعله في حالة هجوم الكلبة، هل أطلق ساقي للريح كما فعلت في المرة الأولى وأترك أمي وحدها، أم أن الواجب يفرض علي أن أقف لآخذ بنصيبي في مقاومة الكلبة مهما كانت النتائج.

ووصلت أمي إلى المكان الذي سقط فيه لوح الخبز، فأعادت الأرغفة المتساقطة إلى مكانها في اللوح، ووضعت اللوح على رأسي، وطلبت مني أن أعود إلى البيت، ولم أصدق عيني فإن الكلبة لزمت ركنها فلم تتحرك، وقلت في نفسي لعلها تنتظر أن نتجه إلى الناحية الأخرى لتهاجمنا من الخلف، واتجهنا ولم تفعل شيئا، وسرنا ودخلنا في زقاقنا ولم يحدث جديد، وأغاظتني هذه الكلبة الخبيثة حتى لقد خطر ببالي أن أقذفها بحجر لأستثير نباحها وهجومها لولا أنني خشيت أن تنتبه أمي، وتحملني مسئولية ما حدث في المرة الأولى، فلابد أنني رميتها بحجر؛ فانطلقت تدافع عن نفسها وعن جرائها، ومع أن أمي لم تكلمني في الموضوع فقد استطاعت الكلبة بتصرفها أن تلقي على تصرفاتي كثيرا من الشك. وكان غضبي من سكوتها وهدوئها في المرة الثانية أشد من غضبي من ثورتها وهيجانها في المرة الأولى، مع أنني لم أسئ إليها في المرتين.

ولم أستطع أن أفسر موقف الكلبة إلا أنه خوف من أمي ومع أن ذلك أدهشني في البداية إذ كانت الفكرة المسيطرة على ذهني حتى ذلك الوقت أن المهابة للرجال. ولكن عندما تقدم بي العمر، واتسعت دائرة ثقافتي، واكتسبت كثيرا من التجارب، علمت أن المرأة لا تخيف الكلب فقط بل تخيف الأسود، وقد حاول بعض الرجال أن يفسروا سر هذا الخوف بأنه احتقار للمرأة، وهو تفسير يهدف إلى الدفاع عن الرجل أكثر مما يفسر الواقع.

ولا تخيف المرأة الأسود من الحيوانات فقط، ولكنها تخيف الأسود من الرجال، وكم لها من ضحايا من هؤلاء الرجال الأسود. مما دعا القائد المشهور نابليون أن يقول: (فتش عن المرأة) وسبقه بقرون شاعر عربي يقول:

إذا رأيـــــت أمـــــورًا منهـــا الفـــؤاد تفتـــت

فـــتش عليهـــا تجـــدها مـــن النســـاء أتـــت